التفسيرات الغربية لنشأة الدين في حياة الشعوب والرد عليها (نظرية تطور الدين إنموذجاً)

Western Interpretations of the religion's Origin in People‹s Lives and Responses to Them: The Theory of the Evolution of Religion as a Model

أ. م. د. علي داود خلف الجنابي
كلية الإمام الأعظم الجامعة
Asst. Inst. Dr. Ali Dawood Khalaf Al-Janabi
Al-Imam Al-Adham University College
Dr.alidaoud4@imamaladham.edu.iq
07732435693

الملخص

يناقش هذا البحث مفهوم الدين عند المفكرين الغربيين، القدامى منهم والمعاصرين، لمعرفة أبرز النظريات التي طرحوها والراجح منها عندهم، ويهدف البحث إلى معرفة مكانة الدين عن المفكرين الغربيين، وهل ان رؤيتهم تتماشى مع ما يعتقد علماء المسلمين ومفكريهم من انه وحي إلهي، أم أنهم يرون بأنه تعليمات وسلوكيات يضعها أشخاص لهم مقبولية في مجتمعاتهم؟ , وبعد التعرف على أقوالهم في هذا الموضوع، توصل الباحث إلى أن علماء الغرب ومفكريهم ينفون ربط الدين بالوحي، ولا يعتقدون بأنه توجيهات إلهية، بل يعتقدون بأنه عبارة عن جهد بشري قابل للنقد والتعديل بمرور الزمن، ثم عمل الباحث على تفنيد هذه الرؤية.

الكلمات المفتاحية : (نشأة، الدين، تطور، الغرب، نظرية).

Abstract:

This research discusses the concept of religion according to ancient and contemporary western thinkers, aiming to identify their prominent theories and which ones they consider most valid. The research seeks to understand the statues of religion among western thinkers and weather their views align with those of Muslim scholars and thinkers, who regard religion as divine revelation, or if they see it as a set of instructions and behavior established by individuals who are accepted in their societies. After examining their opinions on this topic , the researcher concluded that western scholars and thinkers deny the association of religion with revelation. they do not believe it to be divine guidance but rather view it as a human effort that subject to criticism.

Keywords : (Origin, Religion, Evolution, the West, Theory).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نشأة الدين موضوع مهم, ويعرف ويفهم حسب تعريف كل إنسان له بناءً على خلفيته الفكرية والعقدية، وأغلب التعريفات عند علماء الغرب ومفكريهم هي تعريفات ذاتية، أي أنها تحاول إثبات صحة ما يؤمن به الإنسان وإخراج مالا يؤمن به ويعتقد به, على عكس علماء الدين المسلمين الذين لهم ضوابط واضحة المعالم في تعريف الدين وتحديد مكانته, وانطلاقاً من هذا الخلاف الجوهري في تحديد مفهوم الدين بين الفريقين، فقد حاول كثير من العلماء الغربيين تفسير ظاهرة التدين في حياة الإنسان، ولكن بما أنهم اختلفوا في تعريف الدين فقد اختلفوا أيضاً في محاولة تفسير نشأة الدين، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني, وانه خاضع لنظرية التطور, ويرون بأن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية وليست وحي من الله الخالق.

وعليه فقد عملوا على ربط نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان, في حين يُقدِّم بعض العلماء ربطًا بين (الدِّين والأخلاق)، لكنَّ هذا الرَّبط يُعدُّ متأخِّرًا في تاريخ الأديان؛ لذلك جاء هذا البحث للخوض في هذه التفصيلات المهمة لمعرفة فلسفة علماء الغرب ومفكريهم حول الدين ومكانته في حياتهم.

خطة البحث:

المبحث الأول : تمهيد لبيان مفهوم مصطلح الدين وماهية التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

المطلب الأول : مفهوم الدين بين رأي العلماء الغربيين والعلماء المسلمين.

المطلب الثاني : التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

المبحث الثاني : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

المطلب الأول : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

المطلب الثاني : نقد نظرية تطور الدين والرد عليها.

المطلب الثالث : موقف العقيدة الإسلامية من مسألة نشوء وتطور الأديان.

الخاتمة.

المبحث الأول
تمهيد لبيان مفهوم مصطلح الدين وماهية التفسيرات الغربية لنشأة الدين

المطلب الأول : مفهوم الدين بين رأي العلماء الغربيين و رأي العلماء المسلمين.

أولا: تعريف الدين :

كلمة دين في اللغة العربية تعني عدة معان, وذلك بتأثير الفعل الذي يؤخذ منه الكلمة , «فالدين مشتق من الفعل الثلاثي دان وهو تارة يتعدى بنفسه، وتارة باللام، وتارة بالباء، ويختلف المعنى باختلاف ما يتعدى به , فإذا تعدى بنفسه يكون «دانه» بمعنى ملكه، وساسه، وقهره وحاسبه، وجازاه , وإذا تعدى باللام يكون «دان له» بمعنى خضع له، وأطاعه, وإذا تعدى بالباء يكون «دان به» بمعنى اتخذه ديناً ومذهباً واعتاده، وتخلق به، واعتقده [1].

وهذه المعاني اللغوية للدين موجودة في «الدين» في المعنى الإصطلاحي كما سيتبين لنا, لأن الدين يخضع أتباعه ويسوسهم وفق تعاليمه وشرائعه، كما يتضمن خضوع العابد للمعبود وذلته له، والعابد يفعل ذلك بدوافع نفسية ويلتزم به بدون إكراه أو إجبار, وذكر محمد عبد الله دراز[2] المتأمل فيما ذكرته المعاجم اللغوية لمعاني كلمة الدين، يجد أن هذه المعاني كثيرة وبعيدة عن بعضها؛ لذا فالمعاجم اللغوية لا تضع أيدينا على المعنى اللغوي المراد بمفهومه الدقيق لتعريف كلمة الدين، وإنما تكشف لنا عن الوجوه المُتشعّبة لمعاني هذه الكلمة. ونلتمس لهذه المعاجم العذر؛ لأنّها وُضِعت لضبط الألفاظ، لا لتحديد المعاني[3].

---

(١) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.,١٣/١٥٥-١٧٠ ، القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي, مؤسسة الرسالة, بيروت-لبنان, الطبعة الرابعة,١٤١٥هـ-١٩٩٤م ٤/ ٢٥٥ باب النون ، فصل الدال.

(٢) الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، ط٢ (١٣٩٠هـ ١٩٧٠م), ص ٣٣.

(٣) الدين، محمد عبد الله دراز, ص٢٢

ثانياً : الدين إصطلاحاً: تتعدد التعريفات الاصطلاحية للدين سواء عند الغربيين أو عند علماء المسلمين.

وكل عالم حاول أن يستمد تعريفه للدين حسب فهمه ومجال تخصصه , فنجد عند :

١- اميل دور كايم [١] يعد الدين "مؤسسة إجتماعية قوامها التفريق بين المقدس وغير المقدس , ولها جانبان أحدهما روحي مؤلف من العقائد والمشاعر الوجدانية , والاخر مادي مؤلف من الطقوس والعادات , والملاحظ أن تعريف اميل دور كايم , يتوافق مع منظوره الإجتماعي للدين , إذ هو في واقع الأمر تعريفه للدين من خلال التحليل الإجتماعي والفكري للمتدينين , والتمييز بين المقدس وغير المقدس , والتميز بين الروحي والمادي في العقيدة وممارسة الشعائر , وأنطلاقاً من فكر الإجتماع الديني الذي لا يميز بين الدين الموحى به من عالم الغيب , والدين الذي صنعه الأنسان على الأرض[٢].

٢- كانت[٣] ذكر في كتابه (الدين في حدود العقل (,الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية.

٣- شلاير ماخر[٤]في مقالات عن الديانة: قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة[٥].

٣- الأب شاتل في كتابه قانون الإنسانية: الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق: واجبات الإنسان نحو الله ، و واجباته نحو الجماعة، و واجباته نحو نفسه.[٦]

---

(١) فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي , وأحد مؤسسي علم الأجتماع الحديث ينظر : رواد علم الأجتماع , ص ٥٨.

(٢) الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، ص ٤٥.

(٣) إمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٩٤م): فيلسوف الماني وضع العقل في صلب الوجود ومحوره، من مؤلفاته: نقد العقل الخاص- نقد الحكم - اسس ما وراء الأخلاق,. ينظر :الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤاد كامل وزميلاه ،بيروت، دار القلم, ص٣٢٩-٣٣٠.

(٤) فيلسوف وعالم لا هوتي , عرف عنه محاولته التوفيق بين الأنتقادات الموجهة إلى التنوير مع المسيحية البروتستانتية التقيدية , وهو فيلسوف مؤثر في تطور النقد العالمي ينظر : الدين بين الأخلاق والميتافيزيقا عند شلاير ماخر , ص ١١.

(٥) الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، ص ٤٧.

(٦) الدين، عبد الله دراز , مؤسسة اقرأ , ص٣٤.

٥- وايتهد [١] يعرفه : «إنّ الدين عيانٌ لشيءٍ يقوم في ما وراء المجرى العابر للأشياء المباشرة، أو خلف هذا المجرى، أو في باطنه؛ شيءٌ حقيقيٌّ ولكنه مع ذلك لا يزال ينتظر التحقق، شيءٌ هو بمثابة إمكانيّةٍ بعيدة، ولكنّه في الوقت نفسه أعظم الحقائق الراهنة؛ شيءٌ يخلع معنى على كلّ ما من شأنه أن ينقضي ويزول ولكنّه مع ذلك يند عن كل فهم؛ شيءٌ يعدّ امتلاكه بمثابة الخير الأقصى ولكنّه في الآن نفسه عصيٌّ بعيدُ المنال، شيءٌ هو المثل الأعلى النهائي ولكنّه في الوقت نفسه مطلبٌ لا رجاء فيه.[٢]».

وهنا نجد كيف أن وايتهد نحى منحى صوفي في تعريفه للدين ويبين أنه عباره عقيدة باطنية يعيشها المؤمن وينتظر أن تحقق له شيء ولكنه بعيد المنال ، وهي أقرب ما تكون لأفكار المتصوفة. إما تعريف الدين عند علماء الأنثروبولوجيا" [٣] كلباترك[٤] «فهو مجموعة الأفكار المجرّدة والقيم أو التجارب القادمة من رحم الثقافة، ولذلك فالدّين هو رؤيةٌ لا غنى عنها في العالم تحكم الأفكار الشخصية والأعمال، والمعتقد الديني يرتبط عادةً بالطبيعة، الوجود، وعبادة إلهٍ واحدٍ أو آلهة، وإشراك الآلهة في الكون والحياة البشريّة وقد يتعلّق ذلك بالقيم والممارسات التي تنتقل من قِبل الزعيم الروحي للديانة في بعض الديانات , أما في الديانات الإبراهيمية السماوية فمعظم المعتقدات الأساسية قد كشفت من خلال الإله , أي عبر الوحي الإلهي لأحد الأنبياء أو الرسل[٥].

أن علماء الأنثروبولوجيا «علم الإنسان» لا يميزون بين الثقافة والدين ويعتبرون أن الثقافة اسبق وأعم وأشمل , وأن الدين جزء من الثقافة وهذا يبنى عليه فكرة أن الثقافة والدين والفن والفلسفة شيء واحد صنعه الإنسان كما يعتقد علماء الأنثروبولوجيا الغربيين[٦].

---

(١) هو ألفريد نورث وايتهد , فيلسوفانجليزي و من فلاسفة الواقعية ينظر : اميتافيزيقيا وايتهد , مكتبة النور , ص٩

(٢) وايتهيد ، الفرد ، كيف يتكوّن الدين؟ , ترجمة وتقديم : رضوان السيّد، جداول للنشر، آذار-مارس٢٠١٧م،

(٣) علم الإنسان

(٤) هو ويليام هيرد كيلباتريك , تربوي وفيلسوف أمريكي ينظر : رواد علم الأجتماع , ١٩٥

(٥) موسوعة لالاند الفلسفية, , ترجمة: خليل احمد خليل , إشراف :احمد عويدان , دار عويدا, بيروت – باريس , ط١ , ص١٢٠٣-١٢٠٤

(٦) ينظر : الإسلام من وجهة نظر علم الاناسة، كليفورد غيرتز، ترجمه أبو بكر باقادر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م, ص ١٠٨.

الدين عند علماء الدين الإسلامي:

إما الإسلاميون فقد أشتهر عندهم تعريف الدين بأنه , وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل.

أو هو وضع إلهي يرشد إلى الحق في الإعتقادات,و إلى الخير في السلوك والمعاملات[١].

فعند :

١- أبوالبقاء الكفوي في كتابه الكليات, عرف الدين "عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول بأختيارهم المحمود إلى الخير بالذات قلبيا كان أو قالبيا, كالاعتقاد والعلم والصلاة , وقد يتجوز فيه فيطلق على الأصول خاصة فيكون بمعنى الملة , إذ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [٢] وقد يتجوز أيضا , فيطلق على الفروع خاصة , إذ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[٣] ,أي الملة القيمة يعني فروع هذه الأصول[٤], وقد يتجوز فيه أيضاً , فيطلق على الفروع خاصة , إذ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[٥], أي الملة القيمة يعني فروع هذه الأصول[٦] , ولم يبتعد الجرجاني كثيراً في تعريفه للدين , إذ عرفه أنه وضه إلهي يدعو أصحاب العقول إلى ما هو عند الرسول محمد صلى الله عليه وسلم[٧], فالدين والملة متحدان ومختلفان بالاعتبار , فالشريعة من حيث إنها تطاع تسمى ديناً , ومن حيث إنها تجمع تسمى ملة , ومن حيث إنها يرجع إليها تسمى مذهباً , وقيل الفرق بين الدين والملة والمذهب , هو أن الدين منسوب إلى الله سبحانه وتعالى , والملة منسوبة إلى الرسول , والمذهب منسوب إلى المجتهد.

ويعرفه التهانوي فيذكر : الدين وضع الهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه يرشدهم الى الصلاح في الحال والفلاح في المآل»[٨].

---

(١) الدين , ص ٣٤-٣٥.

(٢) سورة الأنعام , الآية١٦١.

(٣) سورة البينة , الآية ٥.

(٤) الكليات ، ابولبقاء الكفوي ، ، تحقيق : عدنان درويش ، ط٢، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٨م ، ص١٨٢.

(٥) سورة البينة , الآية ٥.

(٦) ينظر تفسير الطبري, ص٥٩٨.

(٧) ينظر : الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة , ناصر العقل , ص ١٠.

(٨) كشف مصطلحات الفنون ، التهانوي ، ١٤١/٢.

ومن خلال ما تقدم نجد أن هناك ضوابط لتعريف الدين عند علماء المسلمين مقارنة بالعلماء الغربيين :

أولاً // أن كلمة الدين لا تطلق إلا على الدين الصحيح النازل من السماء, أما الأديان الوضعية التي صنعها الإنسان فلا تسمى ديناً لأن الدين وضع الهي نازل من السماء , بينما العلماء الغربيين لم يميزوا بين أنواع الأديان ولا درجاتها ولا مصادرها واعتبروا أي معتقد يسمى دين حتى لو كان مجرد طوطم[1].

ثانياً // أن العلماء المسلمين اعتبروا أن الدين أعم وأشمل من الثقافة والثقافة جزء من الدين وعلى سبيل المثال فالثقافة الإسلامية مستمدة من الدين الاسلامي , وهكذا كل الثقافات، بينما العلماء الغربيين اعتبروا الثقافة أعم وأشمل وأن الدين جزء من الثقافة وكلها من صنع الإنسان.

ثالثاً// أن العلماء المسلمين ذكروا في تعريفهم للدين فائدة الدين وهي " الصلاح في الحال " أي إصلاح الانسان في الدنيا ،" والفلاح في المآل " أي في الآخرة.

بينما نجد العلماء الغربيين لم يتطرقوا نهائياً لفائدة الدين في حياة الشعوب ، وانطلاقا من البراجماتية التي يؤمن بها الغرب ، فالدين لا فائدة منه وبالتالي هو مجرد ظاهرة اجتماعية في حياة الإنسان انتهى دورها في عصر العولمة.

رابعا //أن التميز الدقيق لدى علماء الدين الإسلامي بين الدين والملة والمذهب , بهذه المصطلحات الثلاث , وأن كان بينهما أرتباط , فهي كلها تعود إلى الأصل وهو الدين , فالملل يمكن أن تعدد بتعدد التابعين لهذا الدين أو ذاك تبعا لوجود أتباعه جغرافيا وبيئيا وثقافيا , إذ تتلقي هذه الجماعات الدين بصور قد تختلف في بعض التفاصيل ,[2] فبالنسبة إلى الدين الإسلامي , فالمسألة قد تكون أكثر وضوحا , إذ أن الدين من الله أي من الوحي , والملة هي ملة الرسول والأنبياء وخاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

إما المذهب يعود إلى أولئك المجتهدين , بالقياس على أصل الشريعة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة , مثل اجتهاد الأئمة الأربعة أو غيرهم من أصحاب المذاهب الفقهية.

---

(١) ينظر: فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م: ١/٢٠٥.

(٢) الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان , دار العلم للنشر والتوزيع – القاهرة , ٢٠٠٣م.,ص ١٢٥.

المطلب الثاني : التفسيرات الغربية لنشأة الدين.

حاول كثير من العلماء الغربيين تفسير ظاهرة التدين في حياة الإنسان ، وكما اختلفوا في تعريف الدين اختلفوا أيضاً في محاولة تفسير نشأة الدين ، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني.

فلو اخذنا رأي أتران (Atran) وبويرا [١] (Boyer) الذي أعتبر ظاهرة الدّين على أنه «خليط كبير من الأفكار والسلوك مع العديد من الأصول التطوُّريةَّ المستقلة، التي توجد خارج الدّين نفس» [٢].

فيتضح من خلال هذا القول أنه يفسر الظاهرة الدين على أنه مجرد شكل من أشكال السلوك وأنها خاضعة لنظرية التطور «والتي سنتكلم عنها لاحقاً».

ويقرر أيضاً أن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية فيذكر «يمتلك البشر القدرة الذهنية على خلق صور لعوامل غير قابلة للملاحظة، وهي عوامل تدفع الأشياء الحقيقية إلى الحدوث، فهناك أمثلة لا حصر لها في الدّين عن العوامل غير القابلة للملاحظة مثل؛ الآلهة والأشباح والسحرة والملائكة والأرواح والأجداد المتوفين والقدّيسين الرعاة والشياطين والكائنات الفضائيةَّ وأبطال الثقافة»[٣].

إما النموذج الثاني الغربي في تفسيره لظاهرة التدين ، فهو المصنف الفئوي المقدَّس، ويقرر أصحاب هذه الفكرة أن القدرة العقلية تقسم الأشياء إلى أصناف مدنسَّة وأصناف مقدَّسة، والمقدَّس أسمى وأقوى، ويجب التعامل معه باحترام. تنشأ قواعد السلوك بالنسبة إلى الأشياء المقدَّسة وغير المقدَّسة ويقرر كثير من علمائهم هذه الفكرة ، فمثلاً ناقش (روي راب[٤] ()، القدسيةَّ باستفاضة وحاول ربطها أيضا بالتكيُّف التطوُّري بمعنى إنَّها تسيطر على الكيفيةَّ التي تتفاعل بها الجماعات البشريَّة مع البيئة، إذ تنسق الإشارات المقدَّسة استجابات الجماعة

(1) Atran, S; Norenzayan, A (2004). "Religion's evolutionary landscape: counterintuition, commitment, compassion, communion". The Behavioral and Brain Sciences. Behavioral and Brain Sciences. 27 (6): 713–30, discussion 730–70.نقلا من موقع www: wikipiedia.org.

(٢) ينظر : الدين والعلم , شكري بوشغالة , مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث , ص ٦٩.

(٣) ينظر: الأديان في علم جان بول ويليم، ترجمة: نسيمة بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت (١٤٢١هـ ٢٠٠١م), ص ٦٩.

(٤) روي آى رابابورت Roy A. Rappaport 1967 خنازير السلف: طقوس في علم البيئة من سكان غينيا الجديدة.

تجاه التغير البيئي، وقد كتب آخرون متعدّدون عنها أيضاً مثل دوركهايم لقد كانت القدسيةَّ عنصرًا مركزيًّا في تعريف دوركهايم للدّين, ويقترح عالم الأنثروبولوجيا الإدراكية) باسكال بوير)[1] في كتابه «الدين مُفَسّراً» أنّه لا يوجد تفسير بسيط للوعي الديني, وهو يعتمد في ذلك على أفكار علماء الأنثروبولوجيا المعرفية[2]، أي تطور المعرفة الإنسانية.

وأما النموذج الثالث لظاهرة السلوك الديني ، فهو التضحية العامَّة، وفقًا لنظريات إيرونز وسوسيس وألكورتا ، فالتضحية تدلُّ على التزام تجاه إيديولوجيا جماعة خاصَّة، وتفعل التعاون داخلها، ووفقًا لإيرونز وسوسيس ، فإنَّ صعوبة تزييف أعمال التضحية تبينّ للجماهير أنهَّ يمكن الوثوق بفرد ما ، و ليست كلُّ التضحيات دينيةًّ؛ فالتضحيات الدينيةًّ تتميز بطابعها الذي يقوم على الإيثار [3]، وتتمُّ بصورة علنية متفاخر بها ، وتسترشد بفلسفة مشتركة عن المقدَّس, قد تكون التضحيات الأخرى غير الدينيةًّ لمصلحة الأقرباء مثل الذريةًّ، ويمكن أن تفسّر بشكل تطوُّري أفضل باعتبارها إيثارًا لذوي القربى، يضع التعقيد الذي يسمي تبادل الإشارات في التضحية العامَّة تطوُّرها في وقت لاحق لتبادل الإشارات المتعلق بـ «التراسل الرمزي المقدَّس»[4].

هكذا يتمُّ تعريف الدّين بصفة مؤقتة على أنه «سلوك داخل أيّ واحد من هذه النماذج الثلاثة المنفصلة»[5].

فيتضح لي مما سبق أن العلماء الغربيين حاولوا تفسير ظاهرة الدين ، لكن وفقا لنظرياتهم المادية التي تنكر الغيب والوحي ، وتؤمن بنظرية التطور التي فسرت أصل الإنسان عندهم ، فحاولوا ربط نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري ، وأن الدين ما هو الا ظاهرة إجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان.

وإنَّ ما يَلفِتُ النَّظرَ في الظَّاهرة الدينيَّة أن الاتِّجاه الدَّاروينيّ للعلوم الطبيعيَّة في القرن التَّاسع عشر لعلماء الاجتماع في القرن العشرين ادى إلى طرح أسئلة تطوريَّة حول الوظيفة التَّكيُّفيَّة

---

(١) عالم نفسي فرنسي ولد في القرن العشرين ينظر : مجلة الطبيعة عدد ٢٠٠٨م

(2) Lienard, P.; Boyer, P. (2006). "Whence collective rituals? A cultural selection model of ritualized behavior". American Anthropologist. 108: 824–827.

(٣) ينظر المقدس والعادي , إلياد مرسيا , ترجمة عادل العوى , صحارى للصحافة , ١٩٩٤م, ص ١٠

(٤) ينظر : ما أصل الإنسان , موريس بوكاي ص٣٠

(5) https://ta3riif.blogspot.com/2019/03/blog-post.html

التي يُقدمها الدِّين للإنسان في تطوُّرِهِ، فقُدِّمت نظريَّات كثيرة لتفسير نشأة ظاهرة الدِّين واستمراريَّتها التَّاريخيَّة، فسَّر كلٌّ منها جانبًا ما من الظَّاهرة دون أن يَشملها.

فمثلًا، قدَّم إميل دوركايم ومدرسَتُه تفسيرًا يربطُ بين»الدَّين والتَّماسك الاجتماعي»، إذ يكون الدِّين هو مصدر ذلك التَّماسك(١), لكنَّ أنظمة القرابة المُتَأسِّسة على رابطة الدَّم سواء في المجتمعات البدائيَّة المعاصرة أو في مجتمعات الصَّيد وجمع الثِّمار القديمة تُقدِّم رابطة أقوى لذلك التَّماسك، عوضًا عن أن الدِّين قد يلعب دورًا عكسيًّا في حالات أخرى فيؤدِّي إلى انشقاقات أو انقسامات اجتماعيَّة(٢), كذلك يُقدِّم بعض العلماء ربطًا بين (الدِّين والأخلاق)، لكنَّ هذا الرَّبط يُعدُّ متأخِّرًا في تاريخ الأديان، فالشَّر في الدِّيانات القديمة مفهوم وجوديّ وليس أخلاقيًّا؛ بمعنى أنَّ الإنسان ليس مسئولًا عن وجوده في العالم(٣)، لأنَّ العالَم وفقًا لهذه الدِّيانات لا يحكمهُ إله الخير المطلق فقط مثلما هو الحال في الدِّيانات التَّوحيدية(٤)، وإنَّما تتنازعهُ آلهة الشَّر إلى جانب آلهة الخير؛ فالشَّر وفق هذا المنظور هو أمرٌ طبيعيّ يتخلَّلُ نَسِيجَ الكونِ ويُمثِّل جزءًا لا يتجزَّأُ من بنيتهِ، ويستحيل على الإنسان مقاومته لطبيعته الإلهيَّة الخارقة. وبالتَّالي لم يعرف الدِّين قديمًا الرَّبط بين الدِّين والأخلاق، وكان علينا أن ننتظر ميلاد الدَّيانة الزَّرادشتية كأوَّل ديانة توحيديَّة لإقامة ذلك الرَّبط(٥).

ويُقِيم علماء آخرون صلة بين (الدِّين والطُّمأنينة النَّفسيَّة وإقامة المعنى)، إلا أنَّ ربطًا من هذا القبيل لا يُمْكِنُ أن يتَجاهُل أيضًا ذلك الجانب الذي تكتمل به مفارقة الدِّين، حين يتحوَّل الدِّين إلى عنصر قلق في حياة الفرد؛ فلَكَم ما يتعرَّض الإنسان إلى ضغوط المساومة بين مبادئه الدِّينية وحياته العمليَّة، ولَكَم ما تَخذلُ حياته المعذَّبة خلاصهُ المُنتظر، ولَكَم ما يصرِف الإنسان وقته في تَرميم المعاني التَّقليديَّة التي أقامها الدِّين بداخله أمام الجريان العبثي للحياة، ولكم ما تحدَّث فرويد عن الدِّين نفسه بوصفه عُصابًا(٦).

---

(١) ينظر : دين الإنسان, فراس السواح، بحث في ماهية الدِّين ومنشأ الدافع الديني، دمشق: دار علاء الدين، د. ت، ص١٢٢

(٢) ينظر : ما أصل الإنسان , موريس بوكاي , ص٣٢

(٣) ينظر : التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين، ترجمة: مصطفى فهمي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥ , ص١١٠

(٤) ينظر :تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية , ٩/١

(٥) تاريخ علاقة الارتباط بين التنظيم الاجتماعي والأخلاقيات والدين، دافيد سي. لاتي، ص١١١

(6) https://www.ida2at.com/great-story-birth-religion/.

فنجد هنا مدى الضبابية والتخبط الذي يعيشه علماء الغرب في محاولة تفسير الظاهرة الدينية وبناء على ما تقدم فأن الباعث على التدين أو الدافع الذي جعل الإنسان ينشئ هذه الظاهرة السلوكية الاجتماعية حسب رأيهم هو شيء يتعلق بالإنسان والطبيعة [١]، واختلفوا في تحديده إذ جاء بثلاثة أقوال :

١- قول جيفونس[٢]: أن الدافع إلى التدين الذي دفع الإنسان الى هذا السلوك هو الخوف من الطبيعة حوله بما فيها من برق، ورعد، وزلازل، وبراكين، وحيوانات متوحشة، جعلت الإنسان في الأزمان القديمة وهو الضعيف الذي لا حول له ولا طول مع هذه الأحوال المتغيرة حوله يبحث عن قوة غيبية لها سيطرة وتأثير في هذه الطبيعة حوله، ولها قدرة على حمايته وحفظه، فألَّهَ وعبد ما يرى أنه أقوى وأقدر على حمايته من المخلوقات التي حوله كالشمس والقمر والبحر ونحو ذلك [٣]

هذه النظرية تلتقي مع سابقتها في القول بأن العقيدة الإلهية تقوم على عوامل نفسية تُثيرها حياة الإنسان اليومية، ولكن بينما النظرية السابقة تواجه من هذه الحياة جانبها المتصل بقوانين الطبيعة الثابتة[٤]، التي تصطدم بها الإرادة فلا يسعها إلا الخضوع والاستسلام للقوة التي فرضت هذه القوانين، وأحكمت وثاقها.

يعتمد (هنري برجسون)[٥] في كتابه "ينابيع الخلق والدين «على جانبين آخرين من تلك الحياة العادية : أحدهما" يرتبط بالقوانين الأدبية التي يفرضها المجتمع وما فيه من العرف والعوائد[٦]».

(١) نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسي، تشارلز داروين ، ترجمة: مجدي محمد المليجي (نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة) ط١, ٢٠٠٥م، ٢٥٠/١.

(٢) هو وليم ستانلي جيفونز عالم منطق وأقتصاد انكيزي وأستاذ بجامعة مانشستر ينظر الموسوعة العربية.

(٣) ينظر : قصة الحظارة , ديورانت ول : ترجمة زكي نجيب محمود , الأدارة الثقافية , ٩٨/١.

(٤) يُنظر : قصة الفلسفة الحديثة , زكي نجيب واحمد امين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة / القاهرة), ١٣٥٥هـ , ص٢٤٤.

(٥) فيلسوف فرنسي حاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٧٢ , ويعد من أهم الفلاسفة في العصر الحديث له عدة مؤلفات منها التطور الخالق.

(٦) ينظر : اتطور الخالق , هنري برجسون , المركز القومي للترجمة ص١١٢.

والآخر «يتعلق بالحوادث المستقبلة، التي تُفتح لها أبواب الإمكان، وتتسع للاحتمالات وللمصادفات، فلا يمكن التنبؤ بها بصفة قاطعة»[١].

أما كيف تنشأ العقيدة الإلهية عن الشعور بالواجبات الاجتماعية، فبيانه أنه لَمَّا كان نظام المجتمع وتماسُكُه يتطلب من الفرد انخلاعه عن بعض رغباته، وتضحيته بجانب من حريته، وتحمله أعباءً تقتضيها مصلحة غيره ولا يعود عليه منها نفعٌ مباشر

٢- قول (ماكس موللر) : [٢] أن العقل هو الباعث على التدين وهو الذي دفع الانسان الى إنشاء الدين في حياته، فالإنسان تميز عن بقية الحيوانات بالعقل والإدراك، وهو باعث على النظر والتفكر في البداية في هذه المخلوقات، والإعجاب بها، وتعظيمها، ثم تطور تفكيره ونمى عقله بعد مدة من الزمن ومن هنا أخذ العقل يفكر فيما وراء الطبيعة، وأداه عقله مع اللغة المستخدمة في الحديث عن الجمادات إلى صبغها بصبغة الأحياء ذوات الأرواح، مما جعله يتعبد لها ويتخذها إلها ، وهكذا نشأ الدين في حياة الإنسان بسبب تفكيره العقلي الذي دفعة الاعتقاد بقوة موجودة في الطبيعة تستحق أن تعبد وتسيد وتطا ع [٣].

٣- قول (دوركايم الفرنسي) : [٤] وهو أن الحاجة الإجتماعية هي الباعث على التدين، فالإنسان يعيش في جماعات وهو كائن اجتماعي والمجتمعات البشرية تحتاج إلى نظم وقوانين تحفظ الحقوق وتصون الحرمات، فأوجد بعض البشر ظاهرة التدين لوضع القوانين المنسوبة للإله حتى تضبط السلوك الإنساني ويؤدي كل إنسان واجبه بمراقبة داخلية، واستطا ع رجال الدين أن يسيطروا على المجتمعات ويضبطوا سلوكها من خلال فكرة التدين، والتضحية لأجل الدين.

ومن هذه الأقوال يظهر واضحاً ادعاء أن الدين مصدره الإنسان، وأن باعثه أمر من الأمور المتعلقة بالطبيعة حول الإنسان، أو دوافع داخلية في الإنسان[٥].

---

(١) هذا قول الانجليزي جيفونس في كتابه "المدخل إلى تاريخ الديانات" نقلا عن كتاب الدين د. محمد دراز ص١٢٥.

(٢) مستشرق ألماني من علماء اللغات ومن الدارسين المتعمقين في دراسة الأساطير والأديان توفي ١٩٠٠م. الأعلام٥/١٤٥.

(٣) الدين, محمد دراز ص٣٨.

(٤) هو أميل دور كايم عالم إجتما ع فرنسي توفى ١٩١٧م. ينظر المنجد في الاعلام ص٢٩٠

(٥) "الله جل جلاله" للعقاد , ص١١٧.

ومن خلال هذه التفسيرات المادية لنشأة الدين في حياة الشعوب ، نجد أن العلماء الغربيين يستبعدون فكرة الغيب وعالم الغيب فهم لا يؤمنون الا بالمحسوس الموجود ، وكل تفسيراتهم المنطلق الأساس لها هو الوجودية ونظرية التطور ، والرد عليهم يكون من خلال اثبات أن هناك عالمين عالم الغيب وعالم الحس، والغيب وهو الأعظم والأكبر وأنه لا يستطيع أي عالم أن يأتي بدليل مادي قاطع ينفي هذا العالم فالإنسان لم يستطع أن يحيط بالمحسوس من هذا الكون وهذا ما أثبت كثير من علمائهم فقالوا بأننا محاطين بعالم مظلم من الأسرار الكونية التي لم يستطع العلم تفسيرها فكيف يحكم على الغيب ونحن لم ندرك المحسوس.

بينما يقرر علماء المسلمين : أن الباعث على التدين: هو الفطرة، ونعتمد في ذلك على الوحي الإلهي والنور الرباني، فإن القرآن الكريم والسنة نصا على أن الإنسان مفطور على الإقرار بالخالق والعبودية له والبراءة من الشرك إذ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقوله تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[2].

فهذه الآية تشهد للآية قبلها، وتبين أن الله عز وجل جعل ذلك في فطر بني آدم، وأنه أخرجهم من أصلاب أبائهم وأخذ عليهم بذلك العهد والميثاق.

و روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك»[3].

ومن الأدلة الدالة على أن الإنسان مفطور على الدين الحق حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء»[4].

---

(١) سورة الروم , الآية ٣٠.

(٢) سورة الاعراف , الآية ١٧٢.

(٣) صحيح البخاري , كتاب أحاديث الأنبياء , باب خلق آدم , رقم الحديث ٣١٥٦.

(٤) صحيح البخاري , كتاب الجنائز , باب ما قيل في أولاد المشركين ,رقم الحديث ١٣٨٥.

وحديث عياض بن حمار المجاشعى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته : «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً..»[١].

فهذه الأدلة صريحة في بيان أن الإنسان مفطور على الإقرار بالخالق، والعبودية له وهذا هو التدين وذلك باعثه

ومن خلال هذه هذه الأدلة يتضح أمرين هما:

الأول : أن هذه الفطرة والإقرار بالخالق إلهاً ورباً، قابلة للتأثر والتغير والإنحراف بفعل مؤثرات خارجية، ولذلك نعتقد بأن السبب في وجود الوثنيات السابقة في الأمم البائدة، واللاحقة في الأمم القديمة والحاضرة هو هذه المؤثرات التي وردت في هذه النصوص.

الثاني : أن المؤثرات التي تؤدي إلى انحراف الفطرة عن وجهتها الصحيحة على ضوء هذه الأدلة ثلاثة وهي:

١- الشياطين : وهي المؤثر الخارجي الأصلي والأول في هذا الأمر كما دل على ذلك حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته : «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كل مال نحلته عبداً حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً». [٢].

٢- الأبوان ويقوم المجتمع بدور الأبوين في حال فقدهما : وهذا المؤثر هو أقوى المؤثرات، وأخطرها لشدة التصاق الأولاد بآبائهم وقوة تأثيرهم عليهم, وقد دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد قدمت الشياطين على الآباء لأن الشياطين هي المؤثر الخارجي الأول في انحراف الآباء أنفسهم.

---

(١) أخرجه مسلم ,كتاب اجنة ووصف نعيمها وأهلها, باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة واهل النار , رقم الحديث ٥٢٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ,كتاب اجنة ووصف نعيمها وأهلها, باب صفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة واهل النار , رقم الحديث ٥٢٤٠.

٣-الغفلة : وهي المؤثر الثالث في انحراف هذه الفطرة كما دلت على ذلك إذ قال تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[1].

ولو سئل سائل: ما هي فائدة الفطرة وهي على هذه الحال من الضعف إذ تتأثر بهذه المؤثرات الخارجية التي تؤدي إلى انحرافها، ولا يكاد الإنسان ينفك عن واحد من هذه المؤثرات والصوارف، أو كلها؟

فالجواب : أن حكمة الله سبحانه وتعالى اقتضت جعل الفطرة بهذه الحال ليتحقق الغرض من ابتلاء الإنسان بالخير والشر ومن ثم جزاؤه على عمله، إذ لو كانت الفطرة قوية لا تتأثر بشيء لما وقع الكفر والإنحراف في بني آدم، بل صاروا غير قابلين للكفر فلا يتحقق الإبتلاء، ولله الحكمة البالغة.

(١) سورة الأعراف، الآية ١٧٢.

المبحث الثاني
نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها

المطلب الأول : نظرية تطور الدين وآراء العلماء الغربيين فيها.

زعم الملحدون أن الشرك كان أسبق في الوجود على الأرض من التوحيد، وهو قول مبني على إنكارهم للخالق عز وجل ، وزعمهم أن الإنسان إنما وجد من الطبيعة حيث كان أميبا(١)، ثم تطور بفعل الرطوبة حتى وصل بعد أزمان عديدة إلى صورة القرد، ثم تطور فصار القرد إنساناً (٢)، فزعموا أن هذا الإنسان وكان في ذلك الوقت في طور الطفولة البشرية أخذ يبحث عن إله يعبده، فتوجه إلى عبادة الأباء والأجداد، والأشجار، والحيوانات الضخمة، والشمس، والقمر(٣)، إلى غير ذلك من الأشياء التي يستعظمها في نفسه(٤)، ثم بدأ هذا الإنسان يتطور في عقله وأحاسيسه، فبدأ يتخلى عن كثير من الآلهة التي كان يعبدها حتى توصل في عهد الفراعنة إلى التوحيد، ولا يعني ذلك عندهم عبادة الله وحده لا شريك له، وإنما عبادة إله واحد وهو «رع" في زعمهم الذي يرمز له بقرص الشمس.

ظاهر من هذا القول أن أصحابه يزعمون أن الأديان من صنع البشر وليست من قبل الله عز وجل، دفع التَّحدي الذي تفرضهُ ظاهرة الدِّين أمام التَّاريخ كثيرًا من العلماءِ إلى الكفِّ عن محاولة تتبُّع الدِّين كمحض ظاهرة تاريخيَّة تُشكِّل حلقة من حلقات الوجود الإنساني، والبدء في النَّظر إليه باعتباره مقترنًا بوجود النَّوع الإنساني نفسه بل سابقًا عليه بالمعنى التَّطوري للكلمة(٥), بمعنى أن الدَّلائل الحفريَّة على وجود التَّجربة الدينيَّة لم تَعد مقترنةً فقط بما يُسمى بالإنسان العاقل , بل تَقترِنُ أيضاً بوجه عام بالهومينيد الأناسيّ, وما تفرَّع عنه من أجناس بشرية

(١) أميبا أو أميبه. حيوان أولى يتكون من خلية دقيقة ذات نواة وليس لها جدار، شكلها غير ثابت، ويتغير تبعاً لامتداد الأقدام الكاذبة وانكماشها. ينظر: الصحاح في اللغة والعلوم ص ٣٩.

(٢) ينظر مذهب النشوء والارتقاء , منيرة الغاياتي ص١٢، وكذلك أيهما هو الصحيح الخلق أم النشوء د. و. ى أوانيل ص٧.

(٣) ما أصل الإنسان , موريس بوكاي ص٣٠

(٤) يُنظر: ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث، ج١، ص٤٧٢.

(٥) ينظر : صندوق داروين الاسود، مايكل بهي، ترجمه: مؤمن الحسن وآخرون (مركز تكوين - المملكة العربية السعودية، ط١, ٢٠١٤م, ص ٦٤

أخرى؛ كالإنسان المُنتصِب , وإنسان النِّيانْدِرتال , بل صار بالإمكان ما هو أبعدُ من ذلك، وهو تَتَبُّع الملامح التَّطوُّرية الأولى للتَّجربة الدينيِّة في شكلها الذَّري الذي يتمثَّل في نظام الأمومة عند الثَّدييات منذ ١٣٥ مليون عام تقريبًا، إذ عزّز نظام الإرضاع الرَّوابط الوجدانيَّة بين الأم وأولادها.(١)

المطلب الثاني : نقد نظرية تطور الدين والرد عليهم.

زعم أصحاب هذا القول أن لهم عليه دليلين:

أولا: القياس على الصناعة، فكما أن الإنسان قد تطور في صناعته فهو كذلك تطور في ديانته.

ثانياً : أن حفريات الآثار دلتهم على أن الناس وقعوا في الشرك وتعدد الآلهة وأن الإنسان عرف التوحيد متأخراً(٢).

وهذا في الواقع قياس فاسد، واستدلال باطل، فقولهم أن الدين كالصناعة قياس مع الفارق لعدة أمور:

١- أن الصناعات شيء مادي، والأديان شيء معنوي، فكيف يقاس شيء معنوي غير محسوس على شيء مادي محسوس فهو كمن يقيس الهواء على الماء.

٢- أن الصناعة تقوم على التجربة والملاحظة وتظهر النتائج بعد استكمال مقوماتها، بخلاف الدين الذي لا يقوم على ذلك ولا تظهر نتائجه في هذه الحياة الدنيا.

٣- يلزم من هذا القياس أن يكون الإنسان في هذا الزمن صادق التدين خالص التوحيد، لأن الصناعة قد بلغت مبلغاً عاليا من التطور، والواقع خلاف ذلك فإن الإنسان أحط ما يكون من الناحية الدينية، إذ أن الإلحاد متفشٍ في أكثر بقاع العالم. كما يلزم منه أن لا يوجد شرك في هذا الزمن، والواقع خلاف ذلك، حيث الشرك متفشٍ في الشرق والغرب.

إما زعمهم الاستدلال على قولهم بالآثار ومخلفات الأمم السابقة، فيقال: إن هذه الآثار ناقصة، فلا دلالة فيها على ما ذكروا سوى التخمين ومحاولة الربط بين أمور متباعدة، وغاية ما تدل عليه الحفريات والآثار أن الأمم السابقة وقعت في الشرك، وهذا لا ننكره بل القرآن

(١) ينظر : مذهب أنساني، جون بول سارتر، ترجمة: عبد المنعم حنفي، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر، د.ط، ١٩٦٣م, ص١١٢.

(٢) ينظر: كتاب "الله جل جلاله" للعقاد ,ص٢٧.

والسنة نصا على ذلك وبيناه، أما عبادة الإنسان الأول وعقيدته فلا يمكن معرفتها من خلال الآثار حتى يعثروا على الإنسان الأول ويجدوا آثاراً تدل على عقيدته وعبادته[١].

ثم إن من المؤكد أن الأمم تتقلب في عباداتها، فتنتقل من التوحيد إلى الشرك، ومن الشرك إلى التوحيد، فمثلاً أهل مكة كانوا على التوحيد دين إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، ثم وقعوا في الشرك، ثم عادوا إلى التوحيد بدعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فمعرفة عبادة أمة من الأمم لا يعني أنها لم تعرف سوى تلك العبادة، بل ذلك يعني أنها كانت على تلك العبادة في تلك الفترة فقط.

وبهذا يظهر جليا واضحاً فساد هذا القول، وأن ما استدلوا به ليس إلا تخرصات وتوهمات، لا تقوم في وجه الحق الواضح البين وهو:

أن الإنسان أول ما عرف التوحيد، ثم بدأ بالانحراف فتدرج في ذلك حتى وقع في الشرك، وذلك لأن الإنسان الأول هو آدم عليه السلام كان نبيا يعبد الله وحده لا شريك له، وعلم أبناءه التوحيد إلى أن وقع بنو آدم في ما من حيث الغاية التي يهدف إليها البحث، وهي تحديد الأصل الأصيل للعقيدة، والمظهر الذي ظهرت به في أول الأزمنة بإطلاق، فلأن هذه المنطقة البدائية المحضة, قد اعتبرها العلم شقةً حرامًا حظرها على نفسه، وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله. فاقتحامها الآن باسم العلم تعامُلٌ بصَكٍّ مزيف، وتستُّر بثوب مُستعار، وكل حكم يصدر تحت هذا الاسم يكون صادرًا عن قاضٍ معزول، فاقدًا للركن الأول من سلطته الشرعية، ومؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلًا تامًّا، فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب[٢].

وأما من حيث المنهج وهو الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية، فلأنه مبنيٌّ على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التي وصل إليها بحثنا، وأنها لم تمر بها أدوار متقلبة، وهو افتراضٌ لم يقم عليه دليل، بل الذي أثبته التاريخ واتفق عليه المنقِبون عن آثار القرون الماضية، هو أن فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، وأن هذه المدنيات

(١) ينظر : دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف,ص٣٤.

(٢) ينظر : المشترك بين الأديان السماوية والعالمية ، سومية حجاج ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ص ٤٠.

قامت بدورها على أنقاض مدنيات بائدة، قريبة أو بعيدة، في أدوار تتعاقب على البشرية، كما تتعاقب الفصول السنوية على الطبيعة بحيث يصبح من العسير أن نحكم بصفة قاطعة بأيهما بدأت دورة الزمان، وليس تعيين أحد الأمرين للابتداء الحقيقي بأثبت تاريخيًّا من مُقابله، فكذلك نقول في شأن العقائد الدينية[١]، إنه من الممكن أن تكون الخرافات القديمة بداية ديانات، كما يمكن أن تكون نتيجة تحلُّل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مزقت أهلها الحروب، أو أفسدتهم الآفات الاجتماعية، فقَلَّتْ عنايتهم بأصول دينهم، وتلقوا بالتسليم والقبول كل ما سمعوه من أفواه الأدعياء والدجالين، وشاعت بينهم هذه الروايات وتوارثوها حتى أصبحت سُننًا مقدسة، ولقد أنصف العلامة (هوفدنج [٢]) حين قال: «إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني [٣]، فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلًا أو كثيرًا حتى إن أَحَطَّ القبائل الهمجية التي نعرفها قد مرت بأدوار شتى، وتطوَّرت تطوُّرًا بعيدًا.[٤]».

فقد بان لك مبلغ ثبات الفرض الذي بُنِيَتْ عليه البحوث الحديثة كلها، وأنها أُسست على جُرُفٍ هَارٍ لا تطمئن عليه الأقدام.

ويمتاز المذهب التطوري بأنه مبنيٌّ على افتراضٍ آخَرَ لم يَقم عليه دليلٌ كذلك، وهو قياس المَلَكات والأحاسيس الروحية، على القوى البدنية والمكتسبات العقلية والتجريبية, فكما أن الإنسان ينتقل في نموه البدني من الضعف إلى القوة، وفي نموه العقلي من الجهالة إلى المعرفة، قد يلوح أيضًا أنه بدأ حياته بالسخف والخرافة، ولم يصل إلى العقيدة السليمة إلا بعد جَهدٍ وعناء[٥].

ونحن نسأل قبل كل شيء عن الأصل الذي بُنِيَ عليه هذا القياس.

---

(١) ينظر :الإسلام بين الشرق والغرب ،علي عزت بيجوفيتش , ترجمة : محمد يوسف عدس (مؤسسة العلم الحديث / بيروت) , ط١ , ١٩٩٤م , ص ٥٤

(٢) وهو مؤلف كتاب مكانة الأخلاق من الفلسفة

(٣) ينظر : مكانة الأخلاق من الفلسفة , هوفدنج ,ص ١١٣

(٤) ينظر : نشأة العقيدة الإلهية للعقاد ، ص١

(٥) ينظر : الدين ، ص١١٦

هل صحيح أن قوى النفس المختلفة تسير في نموها على قدم المساواة، وأن حياة النَّاس الروحية تمشي في كل أدوارها جنبًا إلى جنب مع حياتهم المادية, أَوَلَسْنَا نجد هاتين الظاهرتين تسيران أمامنا في طريقين متعارضين, فإذا صح ما يقال من أن الإنسان كان في بدايته قانعًا بكهف يُئويه، وجلد حيوان يستر به بشرته، وشيء من الأعشاب يدفع مخمصته[١]، ألا تكون قلة مشاغله ومطامحه المادية قد تركت في نفسه فراغًا عميقًا للتأملات التي تُرهف حاسته الدينية، وتنمي مشاعره الروحية العليا؟ كما أن اشتغال النَّاس في عصور المدنيات بترف الحياة الجثمانية يؤدي إلى عكس هذه النتيجة؛ ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص بقدر ما تنمو وتقوى أضدادُها، ككفتي الميزان، لا ترتفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى»[٢].

على أن قليلًا من التأمل يهدينا إلى أن قياس الأديان على الفنون والصناعات إنما هو محاولة للجمع بين أمرين لا تؤلف بينهما حقيقة نوعية مشتركة، بل تتباين طبائعهما ووسائلهما. فبينما حقائق العلوم ثروة واسعة ترحل النفس في طلبها واكتسابها، ويتطلب اقتناؤها وتنميتها علاجًا ومثابرة، واستعانة بأدوات منفصلة في غالب الأمر، وحقيقة الدين توجد عناصرها قارة بين الجوانح، وتُعرض دلائلها لائحة أمام الحس، حتى إن التفاتةً يسيرة لَتكفي للظفر بها في حدس سريع كالبرق الخاطف، وليس إدراك هذه الحقيقة الكبرى محصول إدراكات لحقائق الكون ودقائقه الجزئية، ولا هو أشق منها كما ظُنَّ،٢ بل إنه يتقدمها ويمهد لها، في نظرية كلية تلم بها جملة، قبل أن تفحص أجزاءها وتفصيلاتها؛ ولذلك يستوي العالِم والجاهل في أصل هذا الإحساس، كلٌّ على فهمه يجد في الكون ما يبهره ويستولي على مشاعره.

ولقد كان مقتضى الوضع السليم، في تعرُّف ما كانت عليه بداية الأديان فيما قبل التاريخ، أن تسترشد في مقارنتها، لا بسير الفنون والمصنوعات، بل بسير الديانات المعروفة منذ طفولة التاريخ إلى اليوم، ألا وإننا نعرف بالاستقراء أن كل واحدة من هذه الديانات بدأتْ بعقيدة التوحيد النقية، ثم خالطتْها الشوائب والأباطيل على طول العهد، فالأشبهُ أنْ تكون هذه سُنة التطور في الديانات كلها : أن بدايتها دائمًا خير من نهايتها.

---

(١) ينظر : أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي) تشارلز داروين، ترجمة أسماعيل مظهر ، مراجعة عبد الحليم منتصر (المؤسسة المصرية العامة للترجمة / القاهرة) ,ص ٧٩.

(٢) ينظر : «نظرية التطور عند علماء المسلمين , محمد احميمد». مؤرشف من الأصل في ٠٢ مارس ٢٠٢٢ اطلع عليه بتاريخ ٠٢ مارس ٢٠٢٠.

فإذا أبينا إلا أن نقيس تطور الدين على تطور الفن، كان من الحق علينا ألا نأخذ في هذه المقارنة بالمقاييس السطحية والتشابه اللفظي الأجوف، بل ننظر إلى جوهر الأشياء وأعماقها، وحينئذ ينقلب هذا القياس نفسه حجة في يد أنصار الفطرية، ذلك أن معنى التطور في الفنون كما في كل كائن حي هو أنها تبدأ في صورة ساذجة، متحدة، متجانسة، ثم تنتقل تدريجيًّا إلى نوع من التكثر والتركيب، تزداد به تعقيدًا كلما بعدت عن العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضًا من الوحدة إلى الكثرة، ومن النقاوة والسهولة واليُسْر، إلى التعقُّد بالإضافة الأسطورية، والنزوات الخيالية، التي لا ضابط لها من العقل السليم.

أما «التطور بمعناه الأدبي»، وهو الترقِّي من النقص إلى الكمال، فليس قانونًا علميًّا، ولا سُنة طبيعية مطردة، ولا يمكن تطبيقه بصفة آلية على التاريخ البشري، وإنما هو إحدى القيم العليا التي تطمح إليها النفوس، وتشرئبُّ إليها الأعناق؛ فتبلغها حينًا؛ وتنحسر عنها أحيانًا نعم، إن كل مُصْلِح لا بد أن يكون مؤمنًا بإمكان تحقيق هذه الغايات السامية؛ إذ لولا الأمل في قابلية الأخلاق والعقائد للتحول والرقي، لَبطل كل تشريع، ولأصبح من العبث بذل أدنى مجهود للتقدم، ولكن شتان ما بين قابلية الترقي وبين تحققه بالفعل، فهذا مطمح لا يناله إلا مَنْ أدى مهره من العزيمة الصادقة، والمجاهدة المتواصلة. وتاريخ الإنسانية لا يسير في هذا الاتجاه على خطٍّ رأسيٍّ مستقيم.(١)

هكذا نجد أن التحليل النفسي، وشواهد التاريخ، والتطور الصحيح, لا يقف شيءٌ منها في وصف الدفاع عن النظريات الموسومة بالتطورية، والتي تجعل الخرافة والأسطورة هي بداية الأديان؛ بل إنها بالعكس تميل إلى تأييد النظرية المقابلة، غير أن تأييدها لهذه النظرية الأخيرة لا يرفعها إلى صَفِّ الحقائق التاريخية المفروغ منها؛ لأن هذه الدلائل كلها لا تُقدِّم لنا ضمانًا من المنطق ولا من الواقع تثبت به أن الحوادث كانت تسير بالفعل دائمًا على وفق ما ألفناه من الأوضاع، لا على الوجه الذي كان ينبغي أن يكون, بل هي هنا نظرية ثالثة يمكن الأخذ بها في المسألة، وتقريرها أن الرشد والضلال في الفكرة الدينية ليستا ظاهرتين متعاقبتين فقط، صعودًا أو انحدارًا على مدى العصور، بل هما ظاهرتان متعاصرتان، موزعتان في كل أمة وجيل، تبعًا لاختلاف الأفراد في درجات استقامة الحدس العقلي، ونُبل الحس الباطني، فلا يخلو جيل ما من نفوس صافية تدرك الحقيقة نقيةً من شوائب الخرافة، وأخرى

(١) المشترك بين الأديان السماوية والعالمية ، ص ٤٠.

دون ذلك. ولعل هذا الوصف هو أقرب الأوصاف تصويرًا للواقع المعروف، فقد اتفق الموثوق بهم من مؤرخي الأديان على أن أشد الشُعوب همجية ووثنية لم تنفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب(١).

لكن بين القدر الذي عرف من تاريخ البشرية وبين عصر نشأتها، لا تزال الثغرة واسعة لم تُسد ولن تُسد, إذ لم يقل أحدٌ إن الوقائع المفقودة الوثائق يمكن إثباتها على وجه قاطع بمثل هذا الضرب من التخمين، اعتمادًا على مجرد حُسن المقابلة وجمال التناسق بينها وبين الوقائع المعروفة، دون تثبُّت من تشابه الظروف والملابسات في طرفي القياس.

لقد عجزتْ وسائل العلوم أن تقدم لنا بيانًا شافيًا يطمئنُّ إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول، أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية، فإنه سوف يجد فيها ما شد أزر القائلين بأولية العقيدة الإلهية الصحيحة، لا في الغريزة فحسب , إذقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢) , بل في التطور الزماني كذلك، فهذه النصوص تنادي بأن النَّاس بدءوا حياتهم مستقيمين على الحق مؤتلفين عليه، وأن الانحراف والاختلاف إنما جاء عَرَضًا طارئًا بعد ذلك, إذقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٣ وأن استمرار هذا الخلاف واتساع شُقَّته إنما كان بتأثير الوراثة وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (كُلُّ مَوْلود يُولَد على الفِطْرَة، فأَبَواه يُهَوِّدَانه، أو يُنَصِّرانه، أو يُمَجِّسَانه) ٤" وإلى ذلك كله فإن الكتب السماوية متفقَةٌ على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تُترك وشأنها تستلهم غرائزها وحدها، بغير مرشد ومذكِّر، بل تعهدتها السماء بنور الوحي من أول يوم، فكان أبو البشر هو أول الأفذاذ الملهمين، وأول المؤمنين الموحدين، وأول المتضرِّعين الأوابين, لكن الالتجاء إلى هذه النصوص اعترافٌ ضمنيٌّ بأن وسائل العلم البشري وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يقيني إلى نقطة البدء الحقيقي للدين، والواقع أن الحل النهائي لهذه

(١) الدين ، ص١٦٦.

(٢) سورة الروم , الآية ٣٠.

(٣) سورة البقرة , الآية ٢١٣.

(٤) صحيح البخاري , كتاب الجنائز , باب ما قيل في أولاد المشركين ,رقم الحديث ١٣٨٥.

المسألة إنما يكون عن طريق الوحي؛ لأنها داخلة في منطقة الغيب التي هي موضوع الإيمان، وليست من شأن العلوم الاستقرائية، ولا العلوم الاستنتاجية.

ومما سبق: أن كل النظريات التي حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول بالتطبيق على ديانات القرون الماضية، أو الأمم الهمجية، فَصَوَّرَتْها لنا تارةً سليمة، وتارة سقيمة، وتارة ملفقة؛ إنما هي افتراضاتٌ مبنية على افتراضات فهي لا تصف الحق الثابت ، الذي هو مطلب العلم الصحيح، وإنما تعرض احتمالات تشبه الحق قليلًا أو كثيرًا"[1]

وعند عرضنا الآن شيئًا من هذه النظريات، فليكن معلومًا أننا لن نتابعها في تلك الدعوى العريضة، وهي أنها ترسم الصورة الأولى المطلَقة للحياة الدينية، بل سَنَقنع منها بالجانب التحليلي، أو الجانب التاريخي النسبي، لا أكثر من ذلك.

المطلب الثالث : موقف العقيدة الإسلامية من مسألة نشوء وتطور الأديان

إن للعقيدة الإسلامية وبناؤها في نفوس الأفراد دور هام وعظيم في تكوين الشخصية المسلمة المثالية ؛ لأن العقيدة هي المحرك الأساسي لسلوك الأفراد ، وهي القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء النفس البشرية والمجتمع الإنساني الفاضل,وإن أصل الإنسان خلق من نفس واحدة، إذ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [2] قالوا: إنهم خلقوا من آدم عليه السلام ، وعليه اتفقت كلمة أصحاب الملل , من اليهود والنصارى والمسلمون إلا من شذ منهم واتبع الملاحدة في أقوالهم، وآرائهم، فجميع أصحاب الأديان السماوية يقولون إن الأصل في الإنسان هو التوحيد[3]، والشرك طارئ عليهم[4] ويستدل عليه من وجوه:

١- أن الإنسان الأول هو آدم عليه السلام كان نبياً يعبد الله وحده لا شريك له، وعلم أبناءه التوحيد؛ إذ سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن آدم: أنبي هو؟ قال: نعم، نبي مكلم خلقه

(١) نشأة العقيدة الألهية ، ص٥٠.

(٢) سورة النساء , الآية ١.

(٣) ينظر : عقيدة أهل السنة والجماعة مفهوما وخصائص أهلها , محمد بن إبراهيم , دار خزيمة , الرياض , ط٣ , ١٤١٩هـ-١٩٩٨م , ص١٨٣٦.

(٤) ينظر : العقيدة الدينية نشأتها وتطورها , فرج اله عبد الباري , ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م , ص ١١٢.

الله بيده ثم نفخ فيه روحه[١], وهذا يقر به كل من يؤمن بأن الله هو الخالق، وكل من يؤمن بالأديان السماوية الثلاث, اليهودية والنصرانية والإسلامية, ولم يكن الشرك أصلاً في الآدميين، بل كان آدم عليه السلام ومن كان على دينه من بنيه على التوحيد لله، لا تباعهم النبوة, فإن آدم عليه السلام أمرهم بما أمره الله به، إذ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢] فهذا الكلام الذي خاطب الله به آدم عليه السلام وغيره لما أهبطهم قد تضمن أنه أوجب عليهم اتباع هداه المنزل.

٢- بين الله سبحانه أن البشرية كانت في أول أمرها على التوحيد، ثم طرأ عليها الشرك وتعدد الآلهة، إذ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣] و قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[٤].

٣- أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه أن الفطرة التي فطرت عليها البشرية كلها هي فطرة الإسلام التي هي التوحيد الخالص، إذ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[٥] وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾[٦] , ومن هاتان الآيتان تبينان أن العباد كلهم مفطورون على التوحيد وأنه الأصل في بني آدم ، وقد فسر مجاهد الفطرة بأنها الإسلام.

٤- بيّن الله في كتابه أن التوحيد هو أصل دعوة الرسل وإليه دعوا أقوامهم، إذ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾[٧], و قَالَ

(١) ينظر : المصدر السابق ص ١١٢.
(٢) سورة البقرة , الآية ٣٨.
(٣) سورة البقرة , الآية ٢١٣.
(٤) سورة يونس , الآية ١٣.
(٥) سورة الروم , الآية ٣٠.
(٦) سورة الأعراف , الآية ١٧٢.
(٧) (٢)سورة الشورى , الآية ١٣

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [2]وكل رسول افتتح دعوته لأمته بالدعوة إلى عبادة الله، إذ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [3].

إن وظيفة الدين الأولى أن يعطى الإنسان تصورًا واضحًا لما هو الأحسن وما هو الأصلح، وأن يحدد له بدقة الغايات الصحيحة والأهداف القويمة التي ينبغي أن يتجه لها بسعيه وحركته، وفي منتصف القرن الماضي، حين كانت فكرة تطور المجتمع البشري فكرة مسيطرة على الأذهان، وأولع الناس بها أيما ولع، وقدحوا أذهانهم وخيالهم لوضع نظريات عديدة حولها، ولكن ربما لا يوجد اليوم من بين المشتغلين بالعلوم الاجتماعية من يؤمن بنظرية تطور المجتمع في خط واحد نحو التقدم وفق مراحل محددة، مع أن فكرة التطور الاجتماعي بهذا المفهوم غير صحيحة، فإن التغير الاجتماعي مسألة واقعة ومشاهدة ما في ذلك شك، ووظيفة الدين أن يوجه هذا التغير وأن يدفع به في مسار صحيح، وأن يصحح كل تغير يتناقض مع مُثُلِه وغاياته. فهل جعلت العصرانية الدين الحاكم على كل تغير، أم أنها تسعى لأن يتكيف الدين ويتلاءم مع كل تغير؟ إن التغير صحيح مادام يسير في إطار الدين وفي الاتجاه الذي يحقق غاياته، ولن يكون الدين صحيحًا إذا استجاب لكل تغير(٤).

(١) سورة النحل , الآية ٣٦.

(٢) سورة الزخرف , الآية٢٥.

(٣) سورة الأعراف , الآية ٥٩.

(٤) ينظر: فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م: ١/٢٠٥.

الخاتمة

١- أغلب التعريفات للدين عند علماء الغرب ومفكريهم هي تعريفات ذاتية، أي أنها تحاول إثبات صحة ما يؤمن به الإنسان وإخراج مالا يؤمن به ويعتقد به, على عكس علماء الدين المسلمين الذين لهم ضوابط واضحة المعالم في تعريف الدين وتحديد مكانته,رؤية المفكرين الغربيين للدين ونشاته تختلف مع ما يعتده علماء المسلمين.

٢- إنَّ علماء الغرب ومفكريهم ينفون ربط الدين بالوحي، ولا يعتقدون بأنه توجيهات إلهية، بل يعتقدون بأنه عبارة عن جهد بشري قابل للنقد والتعديل بمرور الزمن.

٣- إنَّ علماء الغرب ومفكريهم اختلفوا في محاولة تفسير نشأة الدين، وكثير منهم اعتبره نمط من أنماط السلوك في علم الاجتماع الديني, وانه خاضع لنظرية التطور, ويرون بأن كثير من العقائد الموجودة في الأديان ما هي إلا صناعة ذهنية إنسانية وليست وحي من الله الخالق.

٤- ربط علماء الغرب نشأة الدين في حياة الشعوب بالتكيف التطوري، وأن الدين ما هو الا ظاهرة اجتماعية مثل كثير من الظواهر التي صنعها الإنسان, في حين يُقدِّم بعض العلماء ربطًا بين (الدِّين والأخلاق)، لكنَّ هذا الرَّبط يُعدُّ متأخِّرًا في تاريخ الأديان.

المصادر والمراجع باللغة العربية

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: المصادر العربية.

١. أديان العالم, د. هوستن سميث, ترجمة: سعيد رستم, دار الجسور الثقافية, الطبعة الثالثة,١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م

٢. الأديان في علم جان بول ويليم، ترجمة: نسيمة بدران، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت (١٤٢١هـ ٢٠٠١م).

٣. الإسلام بين الشرق والغرب ،علي عزت بيجوفيتش , ترجمة : محمد يوسف عدس (مؤسسة العلم الحديث / بيروت) , ط١ ,.

٤. الاسلام من وجهة نظر علم الاناسة، كليفورد غيرتز، ترجمه أبو بكر باقادر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٥. الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم، اميتافيزيقيا وايتهد , مكتبة النور

٦. الأشكال الأولية للحياة الدينية، ايميل دوركهايم،٢٠٠٠م.

٧. أصل الأنواع (نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي) تشارلز داروين، ترجمة أسماعيل مظهر ، مراجعة عبد الحليم منتصر (المؤسسة المصرية العامة للترجمة / القاهرة) ,دون تاريخ طبع.

٨. أيهما هو الصحيح الخلق أم النشوء د. و. ى ما أصل الإنسان , موريس بوكاي.

٩. بحث موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها , المرحوم الدكتور محمد عبد الله درازة, منشور مجلة لواء الإسلام, رجب, ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

١٠. البداية والنهاية , ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، ، دار الفكر طبعة , الجزء الرابع : ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

١١. تاريخ علاقة الارتباط بين التنظيم الاجتماعي والأخلاقيات والدين، دافيد سي. لاتي،

١٢. التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين، ترجمة: مصطفى فهمي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥.

١٣. التطور الخالق , هنري برجسون , المركز القومي للترجمة , ٢٠٠٤م.

١٤. تفسير الطبري، محمد بن جرير بن يزيد , أبو جعفر الطبري ,ت٣١٠هـ, تحقق احمد شاكر , موسسة الرسالة , بيروت, الطبعة الأولى, ٢٠٠٠.

١٥. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية لسعود بن عبد العزيز الخلف.

١٦. الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان , دار العلم للنشر والتوزيع – القاهرة , ٢٠٠٣م.

١٧. الدين : بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع الكويت، ط٢ (١٣٩٠هـ ١٩٧٠م).

١٨. دين الإنسان, فراس السواح، بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، دمشق: دار علاء الدين، د. ت.

١٩. الدين بين الأخلاق والميتافيزيقا عند شلاير ماخر , ٢٠٠٧م.

٢٠. الدين والعلم , شكري بوشغالة , مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

٢١. روي آى رابابورت ١٩٦٧ Roy A. Rappaport خنازير السلف: طقوس في علم البيئة من سكان غينيا الجديدة.

٢٢. صندوق داروين الاسود، مايكل بهي، ترجمه: مؤمن الحسن وآخرون (مركز تكوين / المملكة العربية السعودية)، الطبعة الأولى, ٢٠١٤م.

٢٣. ظاهرة نقد الدين في الفكر الغربي الحديث وتطورها , سلطان عبدالرحمن العميري , مكتبة النور , ٢٠١٩م.

٢٤. العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي, ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٦م.

٢٥. العقيدة الدينية نشأتها وتطورها , فرج اله عبد الباري , ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

٢٦. عقيدة أهل السنة والجماعة مفهوما وخصائص أهلها , محمد بن إبراهيم , دار خزيمة , الرياض , الطبعة الثالثة , ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٢٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري, زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ,مكتبة الغرباء الأثري, المدينة النبوية, الطبعة الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٢٨. فهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد خير، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٢٩. القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي, مؤسسة الرسالة,

بيروت-لبنان, الطبعة الرابعة,١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٣٠. قصة الحضارة , ديورانت ول : ترجمة زكي نجيب محمود , الأدارة الثقافية ,

٣١. قصة الفلسفة الحديثة , زكي نجيب واحمد امين (مطبعة لجنة التأليف والترجمة / القاهرة), ١٣٥٥هـ.

٣٢. كشف مصطلحات الفنون ، التهانوي.

٣٣. الكليات، ابولبقاء الكفوي، تحقيق : عدنان درويش ، الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٨م.

٣٤. كيف يتكوّن الدين؟ , ترجمة وتقديم : رضوان السيّد، جداول للنشر، آذار-مارس٢٠١٧م،

٣٥. لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.

٣٦. مذهب النشوء والارتقاء , منيرة الغاياتي , مكتبة النور , ٢٠١٢م

٣٧. المشترك بين الأديان السماوية والعالمية ، سومية حجاج ، دار الكتب العلمية ، بيروت

٣٨. المشترك بين الأديان السماوية والعالمية ، سومية حجاج ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٣٩. المقدس والعادي , إلياد مرسيا , ترجمة عادل العوى , صحارى للصحافة , ١٩٩٤م.

٤٠. مكانة الأخلاق من الفلسفة , هوفدنج.

٤١. الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤاد كامل وزميلاه ،بيروت، دار القلم,

٤٢. موسوعة لالاند الفلسفية, , ترجمة: خليل احمد خليل , إشراف :احمد عويدان , دار عويدا, بيروت – باريس , ط١.

٤٣. نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسي، تشارلز داروين ، ترجمة: مجدي محمد المليجي (نشر وتوزيع المجلس الأعلى للثقافة / القاهرة) ط١, ٢٠٠٥م.

٤٤. نشأة العقيدة الألهية ، عباس محمود العقاد , دار المعارف , ٢٠٠٨م.

٤٥. نظرية التطور عند عماء المسلمين , محمد احميمد". مؤرشف من الأصل في ٠٢ مارس ٢٠٢٢ اطلع عليه بتاريخ ٠٢ مارس ٢٠٢٠.

٤٦. الوجودية مذهب أنساني، جون بول سارتر، ترجمة: عبد المنعم حنفي، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة- مصر،د.ط، ١٩٦٣م.

ثالثا: المصادر الإنكليزية.

Atran, S; Norenzayan, A (2004). "Religion's evolutionary landscape: counterintuition, commitment, compassion, communion". The Behavioral and Brain Sciences. Behavioral and Brain Sciences. **27** (6): 713–30, discussion 730–70. نقلا من موقع www: wikipiedia.org.

Lienard, P.; Boyer, P. (2006). "Whence collective rituals? A cultural selection model of ritualized behavior". American Anthropologist. **108**: 824–827.

المصادر باللغة الإنكليزية:

1. The Religions of the World, Dr. Huston Smith, translated by: Said Rustum, Al-Jisour Cultural House, 3rd edition, 1428 AH - 2007 CE

2. Religions in the Science of Jean-Paul Willaume, translated by: Nasima Badran, University Foundation for Studies, Publishing and Distribution - Beirut (1421 AH - 2001 CE)

3. Islam Between East and West, Ali Izzet Begovic, translated by: Muhammad Youssef Adas (Modern Science Foundation / Beirut), 1st edition

4. Islam from the Perspective of Anthropology, Clifford Geertz, translated by Abu Bakr Baqader, University Foundation for Studies and Publishing, 1st edition, 1413 AH - 1993 CE

5. The Elementary Forms of Religious Life, Emile Durkheim, Metaphysics and Whitehead, Al-Nour Library

6. The Elementary Forms of Religious Life, Emile Durkheim, 2000 CE

7. On the Origin of Species (The Origin of Living Species through Natural Selection), Charles Darwin, translated by Ismail Mazhar, reviewed by Abdul Halim Muntasir (Egyptian General Foundation for Translation / Cairo), no publication date

8. Which is Correct: Creation or Evolution?, Dr. W. A. What is the Origin of Man?, Maurice Bucaille

9. A Study of Islam's Position on Other Religions and Its Relationship with Them, the late Dr. Muhammad Abdullah Duraza, published in the Journal of the Flag of Islam, Rajab, 1377 AH - 1958 CE

10. The Beginning and the End, Ibn Kathir, Abu Al-Fida Ismail bin Umar Al-Qurashi Al-Basri then Al-Dimashqi, Dar Al-Fikr edition, Volume 4: 1407 AH - 1986 CE

11. The History of the Relationship Between Social Organization, Ethics, and Religion, David C. Lati

12. The Biological Evolution of the Mind and Religious Behavior, translated by: Mustafa Fahmy, Cairo: National Center for Translation, 2015

13. Creative Evolution, Henri Bergson, National Center for Translation, 2004 CE

14. Tafsir Al-Tabari, Muhammad bin Jarir Al-Tabari, Abu Jaafar Al-Tabari, d. 310 AH, verified by Ahmed Shakir, Al-Risala Foundation, Beirut, 1st edition, 2000

15. Studies in Jewish and Christian Religions, Saud bin Abdul Aziz Al-Khalaf

16. Religion (Preliminary Research for the Study of the History of Religions), Dar Al-'Ilm for Publishing and Distribution - Cairo, 2003 CE

17. Religion: Preliminary Research for the Study of the History of Religions, Dr. Muhammad Abdullah Duraz, Dar Al-Qalam for Publishing and Distribution - Kuwait, 2nd edition (1390 AH - 1970 CE)

18. The Religion of Man, Firas Al-Sawah, a study on the essence of religion and the origin of religious motivation, Damascus: Dar Alaa Al-Din, undated

19. Religion Between Ethics and Metaphysics According to Schleiermacher, 2007 CE

20. Religion and Science, Shukri Bouchghala, Believers Without Borders for Studies and Research

21. Pigs of the Sulu: Rituals in the Ecology of New Guinea Inhabitants, Roy A. Rappaport, 1967

22. The Black Box of Darwin, Michael Behe, translated by: Moamen Al-Hassan and others (Formation Center / Kingdom of Saudi Arabia), 1st edition, 2014 CE

23. The Phenomenon of Critique of Religion in Modern Western Thought and Its Development, Sultan Abdul Rahman Al-Omairi, Al-Nour Library, 2019 CE

24. The Mind and Science in the Holy Quran, Yusuf Al-Qaradawi, 1st edition, Wahba Library, Cairo, 1996 CE

25. Religious Doctrine: Its Origin and Evolution, Faraj Al-Abd Al-Bari, 1427 AH - 2006 CE

26. The Doctrine of the Ahl al-Sunnah wa al-Jama'ah: Concepts and Characteristics, Muhammad bin Ibrahim, Dar Khuzaymah, Riyadh, 3rd edition, 1419 AH - 1998 CE.

27. Fath al-Bari: Explanation of Sahih Al-Bukhari, Zain al-Din Abdul Rahman bin Ahmad bin Rajab Al-Hanbali, Al-Ghurabaa Al-Athari Library, Medina, 1st edition 1417 AH - 1996 CE

28. The Concept of Religious Renewal, Bostami Muhammad Said Khair, Center for Foundations for Studies and Research, Jeddah - Kingdom of Saudi Arabia, 1st edition, 1433 AH - 2012 CE

29. The Comprehensive Dictionary, Majd al-Din Muhammad bin Yakub Al-Firoz-abadi, Al-Risala Foundation, Beirut - Lebanon, 4th edition, 1415 AH - 1994 CE

30. The Story of Civilization, Will Durant, translated by Zaki Naguib Mahfouz, Cultural Administration

31. The Story of Modern Philosophy, Zaki Naguib and Ahmed Amin (Printing Committee for Authorship and Translation / Cairo), 1355 AH

32. Glossary of Art Terms, Al-Tahanawi

33. The Universals, Abu al-Baqa al-Kafawi, verified by: Adnan Darwish, 2nd edition, Al-Risala Foundation - Beirut 1998 CE

34. How is Religion Formed?, translated and introduced by: Ridwan Al-Sayyid, Jadawel for Publishing, March 2017 CE

35. The Tongue of the Arabs, Jamal al-Din Muhammad bin Makram bin Manzur Al-Ansari, Dar Al-ʻIlm for Millions, Beirut - Lebanon, 7th edition, 1986 CE

36. The Doctrine of Evolution, Munira Al-Ghayati, Al-Nour Library, 2012 CE

37. Commonalities Among Divine and Global Religions, Soumia Hajjaj, Dar Al-Kutub Al-ʻIlmiyyah, Beirut.

38. Commonalities Among Divine and Global Religions, Soumia Hajjaj, Dar Al-Kutub Al-ʻIlmiyyah, Beirut

39. The Sacred and the Ordinary, Mircea Eliade, translated by Adel Al-Awa, Sahara for Press, 1994 CE

40. The Status of Ethics in Philosophy, Hovdeng

41. The Concise Philosophical Encyclopedia, translated by Fouad Kamel and colleagues, Beirut, Dar Al-Qalam

42. Lalande's Philosophical Encyclopedia, translated by Khalil Ahmed Khalil, supervised by Ahmed Owaidan, Dar Owaidan, Beirut - Paris, 1st edition

43. The Origin of Man and Sexual Selection, Charles Darwin, translated by Magdy Mohamed El-Meligy (Published and Distributed by the Supreme Council of Culture / Cairo), 1st edition, 2005 CE

44. The Origin of Divine Doctrine, Abbas Mahmoud Al-Aqqad, Dar Al-Maaref, 2008 CE

45. The Theory of Evolution Among Muslim Scholars, Muhammad Ahmimd. Archived from the original on March 2, 2022, accessed on March 2, 2020

46. Existentialism: A Humanism, Jean-Paul Sartre, translated by Abdel Moneim Hanafi, Egyptian House for Printing and Publishing, Cairo - Egypt, undated, 1963 CE.